وراء كل طالب متميز معلم متميز

منال زبن

المعلمة منال زبن.

لا شك أن علاقة المعلم بطلابه، يجب أن تكون علاقة محبة صادقة، مليئة بالنصح والتوجيه، والاحترام والصداقة، وإنني أتساءل لماذا لا يبدأ المعلم مع طلبته بطرح الصداقة والمحبة عليهم من أول حصة يلتقي بهم، فعلاقة الطالب المحب لمعلمه تصنع منه طالباً دارساً مجتهداً وباحثاً عما يرضي معلمه، وكذلك بالنسبة لعلاقة المعلم المحب لطلبته، فهو كما يبذل جهداً في تنمية المحبة والصداقة في نفوس طلبته، فإنه لا بدّ أن يحصد حباً أكثر، وبالتالي نجاح وتفوّق أكبر.

والصورة المخالفة لذلك هي صورة المعلم المتكبر والمتعجرف الذي يلوح بعصاه يميناً وشمالاً، متوّعداً ومهدداً، فهذا المعلم لا بدّ أن يجد أمامه طلبة خائفين، قلقين، ينصبّ تفكيرهم في الهروب من التهديد والتوعد، ويبقون متوترين طيلة الحصة الدراسية، غير منتبهين لما يلقيه عليهم هذا المعلم من معلومات ومعرفة.

وهذا ما حصل معي تماماً، فبينما كنت في المدرسة، وتحديداً في الصف الثالث الابتدائي، كانت هناك معلمة اللغة الإنجليزية (ع. ش)، كنت أكرهها بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فكم كانت هذه المعلمة متكبرة ومتعجرفة، تستخدم الوعيد والتهديد باستمرار، حيناً تهدد بالرسوب إلى الصفوف الأدنى، وحينا آخر بالإنذار للأهل، وحينا آخر بالوقوف والعقاب أمام جميع طالبات المدرسة، وبلغ تراجعي في تحصيلي ذروته إلى ذلك اليوم الذي لم ولن أنساه، إنه اليوم الذي قامت فيه تلك المعلمة بترسيبي إلى الصف الثاني عقاباً لي، وعدم إرجاعي إلا بعد تدخّل ولي أمري، يا لها من معلمة قاسية، لم تحاول أبداً أن تتبنى ضعفي وتقف إلى جانبي وتساعدني، كما كانت تفعل مع الطالبات المتفوقات، ففي الوقت الذي كانت تعاقبني وبعض الطالبات، كانت توجه جهدها واهتمامها إلى بعض الطالبات المتفوقات، الأمر الذي جعلني أكره حتى تلك الطالبات، لغيرتي منهن، تماماً كما يحدث عندما يفرّق الأب أحد أولاده عن الآخر، ما يولّد الحقد والكراهية بينهم. كل هذا كان له تأثير كبير في تراجعي في تحصيلي، لأني كنت أكره المدرسة خوفاً منها.

وبقيت مقصرة ومعرّضة للرسوب إلى أن وصلت إلى الصف السابع الأساسي، حيث في هذه المرحلة اختلفت كل الموازين، وخضت في تجربة أخرى، فهذه التجربة لا تفارق ذاكرتي، أشعر بأنها كانت من الأسباب الدافعة لي إلى حب المدرسة، وبالتالي النجاح والتفوق، علاوة على تشجيع والديّ -حفظهما الله- لي باستمرار على الجدّ والاجتهاد، لاسيّما أنني كنت الفتاة الوحيدة بين أربعة ذكور.

هذه التجربة كانت بطلتها معلمة اللغة العربية (أ.ي). ما زلت أذكر اسم هذه المعلمة، مع أن ذاكرتي قد أسقطت أسماء كثيرة من معلماتي في السنين البعيدة، أذكر تلك المعلمة وضحكتها، كانت تعززني دائماً وتمدحني كثيراً، لكي أجتهد أكثر فأكثر وأكون عند حسن ظنها.

ومع بداية الفصل الأول من الصف السابع، حصلت على علامات متدنية، ولكن بعد تعرفي على هذه المعلمة، وكم كانت معلمة متميزة في تعاملها مع الطلبة، مراعية للفروق الفردية بين الطالبات، محبة تارة ومشجعة تارة أخرى، تغير الحال نحو الأفضل. وفي يوم من الأيام، ومع اقتراب نهاية الفصل الدراسي الأول، تقدمت لامتحان يومي، وحصلت على علامة ثمانية ونصف من عشرة، وهذه كانت أول علامة عالية أحصل عليها، وبعدها امتحان نهاية الفصل، وتفوقت به أيضاً، نعم، هذه كانت نقطة التحول في مسيرتي، حيث فرحت هذه المعلمة مني ومن تقدمي الملحوظ، وقامت بشكري أمام جميع الطالبات في الطابور الصباحي، وكانت هذه اللحظة هي بداية التحول في حياتي من طالبة مهملة ليس لضعف مني، وإنما لشدة كرهي لتلك المعلمة في السنوات الأولى، إلى طالبة متميزة، بل ومتفوقة تنافس الطالبات الأوائل في الصف، وهكذا استمرت مسيرتي التعليمية في المدرسة، بأن أحصل كل سنة على معدل عالٍ وأكون من المتفوقات، إلى أن وصلت إلى مرحلة الثانوية العامة، واجتزت هذه المرحلة أيضاً بتفوق، بعدها التحقت بجامعة بيرزيت، واخترت تخصص اللغة العربية، مؤمنة بكون المعلمين هم أرفع الناس قدراً، وأعظمهم شأناً، فهم الذين يرشدون العقول، ويوجّهون السلوك، وعليهم أن يكونوا أصحاب فكر وحكمة، وصبر ورويّة، وإخلاص وأمانة.

بدأت عملي معلمة في برنامج التعليم المساند، ولا شك أن هذه التجربة كان لها الأثر الكبير في اكتسابي الخبرات الكافية والضرورية لتدريس اللغة العربية واللغة الإنجليزية في الوقت نفسه، حينها شعرت بمسؤولية عظيمة في هذه المدرسة، وبخاصة أن أول وقفة لي أمام الطلاب كانت لطالبات التوجيهي، كم كانت هذه اللحظات مرعبة، حيث أنني أردت أن أبذل قصارى جهدي للوصول أولاً إلى قلوب تلك الطالبات، وتنمية الصداقة والمحبة بيني وبينهن، وثانياً الرقي بهن والوصول إلى درجات الجدّ والاجتهاد في تحصيلهن.

لا أخفي عليكم أن صورة تلك المعلمة التي بخلت عليّ كثيراً من العناية والاهتمام لم تغادر ذاكرتي، بذلت كل جهدي لتجنب تلك الشخصية المتعجرفة، بأن تسيطر على طبعي، بل على العكس – فالمظلوم لا يظلم– تقمصت شخصية تلك المعلمة الودودة وجعلتها شعاراً في حياتي العملية، ونموذجاً في تجربتي التعليمية.

كم هو جميل أن يلتف حولك الطلاب وأنت خارج من الحصة، أو أثناء تجوّلك في الدقائق الخمس، فترى الطلاب كأنهم نجوم يدورون حول كوكب جميل مليء بالحيوية يمنحهم الحب والودّ لهم جميعاً دون تحيّز أو تفريق.

هذه طالبة تحاول أن تحمل عني ما أحمله من دفاتر لتذهب بها إلى غرفتي، وأخرى تسألني عن حالي، وأخرى تصافحني، والبعض منهن تقول لي: «لماذا يا معلمتي لم تأت إلينا تلك الحصة؟».

نعم، كم هو جميل عندما تدخل الصف وتجد الطلاب يفتحون لك الباب والابتسامة ارتسمت على شفاهم.

هذه المدرسة وهذه التجربة كانت وما زالت بصمة واضحة في مسيرتي التعليمية، لاسيّما أنها المدرسة التي خرجت منها طالبة ورجعت إلى جانب معلماتي زميلة، فما زاد شعوري بالرهبة والضعف لكون الغالبية كنّ معلماتي وكوني الأصغر سناً، إلا أنني، ومع مرور الأيام، بدأت تلك الغيمة من الرهبة تتلاشى شيئاً فشيئاً، وبفضل ما لمسته ورأيته من مديرة المدرسة وتشجيعها الدائم لي، وإعجابها بما أقوم به من بناء الخطط العلاجية للوصول إلى الأهداف المنشودة، فكانت أولويات مهماتي في هذا البرنامج هو تحديد الفئات المستهدفة وجوانب الضعف، وتحديد المهارات الأساسية المراد علاجها، وبناء الخطط العلاجية المناسبة، وبفضل الله تعالى نجحت في ذلك.

وفي العام الثاني لي في هذه المدرسة، انتقلت إلى تعليم الطالبات المغتربات الناطقات بغير العربية، وبدأت أيضاً بوضع وبناء الخطط العلاجية المناسبة لهن، وتكيفت كثيراً مع هذا العمل، كم كنت سعيدة وما زلت، حيث أرى التقدم شيئاً فشيئاً في مستوى تلك الطالبات، علاوة على ما أراه وألمسه من دعم وتشجيع واحترام في وجوه المحيطين بي من قبل أهالي تلك الطالبات.

وفي النهاية، أقول إنني فخورة كوني معلمة أربي أجيالاً، وفي مهنة عظيمة، ويكفي أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان معلماً لهذه الأمانة، فهي أمنيتي منذ طفولتي، ومنذ أن أحببت تلك المعلمة، وأردت أن تكون قدوتي، لذلك أقول وأكرر ما أقول «لو لم أكن معلمة لوددت أن أكون معلمة».

مدرسة الشيخة فاطمة الثانوية

المعلمة منال زبن خلال لقاء مع مركز القطان للبحث والتطوير التربوي لتطوير قصص المعلمات.